

دلائل الإعجاز

(سالتُ عليَّه شِعَابُ الحَيِّ حينَ دَعَا ... أُنْصَارَهُ بِوُجُوهِ
كالدَّنانيرِ) .

فإِنَّكَ تَرى هذه الاستعارة على لطفِها و غرابتها إِذْ نَسَمَّا تَمَّ لها الحسنُ وانتهى إِلى
حيثُ انتهى بما تُؤَخِّسِي في وضعِ الكلامِ من التقديمِ والتأخيرِ . وتجدُّها قد مَلَّحَتْ
وَلَطَّفَتْ وبمُعَاوَنَةٍ ذلكَ ومُؤَاوَرَتِهِ لها . وَإِنْ شَكَّكَتَ فاعمِدْ إِلى الجارِّينِ والظرفِ
فأَزِلْ كَلَامًا منها عن مكانِهِ الذي وَضَعَهُ الشاعرُ فيه فقلْ : سالتُ شِعَابُ الحَيِّ بِوُجُوهِ
كالدَّنانيرِ عليه حينَ دَعَا أَنْصَارَهُ . ثم انظرْ كيفَ يكونُ الحالُ وكيفَ يذهبُ الحسنُ
والحلاوةُ وكيفَ تَعْدَمُ أَرْوَاحُكَ التي كانتَ وكيفَ تذهبُ الذَّشْوَةُ التي كنتَ تجدُّها .
وَجُمْلَةُ الأَمْرِ أَنَّ هَاهُنَا كَلَامًا حَسَنًا لَلْلفظِ دُونَ النظمِ وآخرَ حَسَنًا لَلْذَّطِّ دُونَ
اللفظِ وثالثًا قد أَتَاهُ الحسنُ مِنَ الجهتينِ ووجبتُ له المزيَّنةُ بكلا الأمرينِ
والإشكالُ في هذا الثالثِ وهو الذي لا تَزَالُ تَرى الغلطَ قد عارضَكَ فيه وتراكَ قد
حِفَّتَ فيه على الذَّطِّ فتركتهَ وطمحتَ ببصركَ إِلى اللفظِ وقدَّرتَ في حُسْنٍ كانَ به
وباللفظِ أَنَّهُ لَلْلفظِ خاصَّةً . وهذا هوَ الذي أُرِدْتُ حينَ قلتُ لك : إِنََّّ في الاستعارةِ
ما لا يمكنُ بيانُهُ إِلَّاَّ من بعدِ العلمِ بالنظمِ والوقوفِ على حقيقتهِ .

ومن دقيقِ ذلكَ وخَفِيَّه أَنكَ تَرى الناسَ إِذَا ذَكَرُوا قولَه تعالى : (وَاشْتَدَّ عَلَ
الرَّاسِ أَشُّ شَيْبًا) لم يَزِيدُوا فيه على ذِكْرِ الاستعارةِ ولم ينسبوا الشرفَ إِلَّاَّ
إِليها ولم يَرَوَا للمزيَّنةِ مُوجِبًا سِوَاهَا . هَكَذَا تَرى الأَمَرَ في ظاهرِ كلامِهِم وليس
الأمرُ على ذلكَ . ولا هذا الشَّرْفُ العظيمُ ولا هذه المزيةُ الجليلةُ وهذه الرَّوْعَةُ التي
تَدْخُلُ على الذَّطِّ فوسَّعَتْ هذا الكلامَ لمجرَّدِ الاستعارةِ . ولكنْ لأنَّ سُلُوكَ بالكلامِ طريقُ
ما يسندُ الفعلُ فيه إِلى الشيءِ وهو لِمَا هو من سَيِّدِيهِ فيُرفَعُ به ما يسندُ إِليه
ويؤْتَى بالذي الفعلُ له في المعنى منصوبًا بَعْدَهُ مَبِينًا أَنَّ ذلكَ الإسنادَ وتلكَ
النسبةَ إِلى ذلكَ الأولِ إِذْ نَسَمَّا كانَ من أَجْلِ هذا الثاني ولما بينَهُ وبينَهُ من
الاتِّصَالِ والمُلَابَسَةِ كقولِهِم : طابَ زَيْدٌ نَفْسًا وقرَّ عَمْرُؤُ عَيْنًا وَتَمَيَّبَ عِرْقًا
وَكَرَّمُ أَصْلًا